خنقة (سيدي) ناجي أو تونس الصغيرة: حاضرة علم وفن وجمال

Khanguet (Sidi) Nadji or Small Tunisia: Town of Science, Art and Aesthetic

د. عبدالحليم عساسي[1]، د. مروان سمير قدوح[2]

[1] جامعة باتنة 1، الجزائر، abdelhalim.assassi@univ-batna.dz

[2] جامعة باتنة 1، الجزائر، samir.merouane@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2019/08/25 تاريخ القبول: 2019/11/10 تاريخ النشر: 2019/12/27

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى التعريف بالمدينة الأثرية حاضرة **خنقة (سيدي) ناجي** التي أسسها الشيخ **(سيدي) المبارك بن قاسم** يرحمه الله عام 1010هـ / 1602م، وإبراز أهمية تراثها الثقافي المعماري وأهم شواهده، مع تبيان أبعاده التاريخية والثقافية والفنية، وذلك من خلال المنهج الوصفي التحليلي المبني على البحث الميداني.

باستخدام كل من المراجع والمصادر المتوفرة، والاستجوابات مع السكان الأصليين والصور الفوتوغرافية وبناء على الملاحظة العينية المتفحصة، توصلنا إلى أنه من بين أهم نتائج هذا البحث تتمثل في كون **خنقة (سيدي) ناجي** تمثل حاضرة معمارية تستحق التصنيف ضمن قائمة التراث العالمي لليونيسكو، دوّنت جمالها جداريات وزخارف فنية تكررت فيها كلمة الأسطى في النقوش، وهي كلمة أصلها تركي، وتعني المعلم الخبير في إتقان إحدى الصناعات أو الفنون بنمط تونسي عريق.

كلمات مفتاحية: خنقة (سيدي) ناجي؛ حاضرة؛ علم؛ فن؛جمال.

Abstract:

Through this study, we aim to introduce the historical, cultural and artistic dimensions of Khanguet (Sidi) Nadji, based on an analytical descriptive approach and using both references and available resources, and interviews with indigenous people and photographs.

The first part of our study is about the concept of heritage and the relevant international classification standards and criteria, and the second part aims to highlight the natural, and artistic features of Khanguet (Sidi) Nadji.

Keywords: Khanguet (Sidi) Nadji; town; science; art; aesthetic.

1. مقدمة:

الإبداع مبدأ اعتمده الإنسان من حضارة لأخرى، يهدف من خلاله تذليل الصعوبات وتحسين المحل الذي هو فيه، سواء في جانبه المادي الاستخداماتي أو الروحي الجمالي الميتافيزيقي. وقد اتخذت العمارة مبدأ الإبداع في نمط التوظيف لعناصر العمارة على اختلاف المنطلقات الفكرية المعمارية وفقا للزمان والمكان. مثال ذلك المدينة التاريخية **خنقة (سيدي) ناجي** التابعة لولاية **بسكرة** بالجزائر، وعلى اختلاف المراحل الزمانية التي مرت بها وفي ظل الإمكانيات الطبيعية للبيئة التي غرست فيها، فقد أنتجت تراثا مبنيا بديعا يستحق فعلا تصنيفه وإدراجه ضمن قائمة التراث العالمي لليونيسكو بالرجوع إلى شروط هذه الأخيرة.

نهدف من خلال البحث إلى التعريف بهذه المدينة الأثرية **خنقة (سيدي) ناجي**، وإبراز أهمية تراثها الثقافي المعماري وأهم شواهده، مع تبيان أبعاده التاريخية والثقافية والفنية، وذلك من خلال المنهج الوصفي التحليلي المبني على البحث الميداني.

يتكوّن البحث من مقدمة ذكر فيها موضوع البحث وحدوده وأهدافه ومنهجه وخطته، ومبحث خاص بمفهوم التراث ومعايير التصنيف العالمية المتعلقة به، ثم جزء ميداني يهدف إلى إبراز الخصائص والمميزات الطبيعية والتاريخية والتراثية والفنية لـ **خنقة (سيدي) ناجي**، لننهي البحث بخاتمة نؤكد فيها أهمية هذه المدينة الأثرية مع التوصيات المتعلقة بضرورة المحافظة عليها وإعادة بعثها من جديد.

2. إشكالية البحث:

انتشر مصطلح التّراث بشكل عام والتّراث المبني بشكل خاص أثناء سبعينيّات القرن الماضي، فقد تأثّر هذا المصطلح بالتيّار العالمي وبالخصائص الاجتماعية والاقتصادية للتّراث في حدّ ذاته اعتبارا للوسط الزّمكاني. ويمثّل التّراث المبني البيئة المبنيّة التي صمّمت وأنشئت من طرف الإنسان، والتي تحمل الثّنائية (الجمالية /التّطبيقيّة أو الممارستيّة)، بحيث

أنّها تعطي الفرصة للانسان لكي يعبّر عن أفكاره اتّجاه علاقته بالعالم الخارجي، بشكل آخر، التّراث المبني يعطي صورة حقيقيّة لكيفيّة إدارة الإنسان لمجالاته بخلق مرآة معمارية وعمرانية تعكس كيفيّة تفكيره فيما يتعلّق بداخله وبالعالم الخارجي، منتجا نماذج وتحف تجذب إليها الناظرين ويشد إليها السياح حقائبهم.

في هذا الإطار، نجد أنّ الجزائر مثلها مثل شتى بلدان العالم تمتلك مواقع تراثية هامة، منها ما صنّف وطنيا وعالميا ومنها ما ينتظر، ولعلّ من أهم تلك المواقع التراثية نجد موقع **خنقة (سيدي) ناجي**، الذي لا يقلّ أهمية عن مواقع منطقة **وادي مزاب** التي صنفت وأدرجت منذ زمن بعيد ضمن قائمة التراث العالمي لليونيسكو، وعلى الرغم ممّا تتميز به **خنقة (سيدي) ناجي** من أهمية تراثية وتاريخية وفنية جمّة، إلا أنها تشهد إهمالا حقيقيا ومجحفا من طرف السلطات المحلية فما بالك بالسلطات المركزية.

3. مفاهيم حول التراث:

1.3 ماهية التراث المبني:

يمكن اعتبار التّراث المبني مظهرا من مظاهر التّراث المادّي الذي يعنى بالبعد الثّقافي والذي يسعى من خلاله المهتّمّون والمتخصّصون في فكّ المعاني التّي يقدّمها من أجل عرض سياحة ثقافية ناجعة، ذلك إذا ما قدّم بالشّكل المطلوب وتمّ الاعتناء به بشتى الطّرق والوسائل، فيعود على الفرد والجماعات بالفائدة بكلّ أشكالها[1].

التّراث المبني هو العمران الذي يعكس ثقافة معيّنة لمجتمع معيّن في زمن معيّن وفي مكان معيّن، فهو يعبّر عن طريقة التّفكير الفردية والجماعية في رسم الحيّز المبني الذي يحوي نمطا معيّنا للمعيشة وذلك اعتبارا لمعطيات تاريخية وجغرافية وطبيعية ودينية وثقافية

واقتصادية واجتماعية معيّنة، ورغم مختلف المعوّقات داخلية كانت أو خارجية، وضمن منطق زمكاني سائد.

التّراث المبني هو[2]:

– كلّ بناية غير محميّة في إطار الآثار التّاريخيّة.

– العمارة اليوميّة (المدنيّة أو العسكريّة).

– كلّ بناية من الفترة ما قبل الصّناعيّة (سابقة للحرب العالميّة الثّانية).

– كلّ منشأ له قيمة ثقافيّة وتقنيّة.

التّراث المبني هو الفكر البنائي المشترك بين الجماعات والمجموعات الإنسانيّة، والذي يعتبر إرثا منقولا من طرف الأجداد، فهو مرتبط بمجتمع وفترة زمنيّة محدّدة. كما أنّ التّراث مرتبط بالهويّة لأنّه يجسّد الذّاكرة، حيث إنّ الهويّة يمكن أن تكون فرديّة أو جماعية، بيد أنّ الهويّة الفرديّة لها جذورها في الهويّة الجماعيّة.

التّراث المبني يعبّر عن الممارسات اليوميّة للجماعة والفرد وذكريّاتهم، معبّرا عن ذوق مشترك وتقاليد جهويّة ويجمع الأجيال ليؤسّس ثقافة محلّيّة لها خصوصيّتها. ويؤكّد ذلك البيان التّالي الخاص بمقاطعة **كيبك** ب**كندا** فيما يتعلّق بالتّراث:

"*... نؤكّد حقّنا في الذّاكرة وواجب الاحترام اتّجاه الآخرين والأماكن... نؤكّد معنى وأهمّيّة تراثنا بالنّسبة للمجتمع وبالنّسبة لكلّ فرد الذي يعتبر واحدا من مكوّناته...*"[3].

ملاحظة التّطوّر التّاريخي لمفهوم التّراث المبني لا يمكن أن يتأتّى إلاّ بالأخذ بعين الاعتبار الإطار الاجتماعي والثّقافي والذي منه يمكن معرفة الخبايا والخلفيات المتعلّقة بالمنتوج التّراثي: فبالأسس الثّقافيّة وبمعرفة المواقف المتجذّرة في التّقاليد المتوارثة جيلا بعد جيل، يمكن فهم التّراث المبني الذي نحن بصدد دراسته وفهمه. وعند الحديث عن التّراث المبني، نتحدّث عن علاقتنا بآثار الماضي التي تركها الأشخاص في منظور التّاريخ

والمجتمع والتّعامل مع المكان والمواد التي يستخدمها إنسان الحقبة الزّمنيّة الماضية. كما يعتبر التّراث المبني بنايات وبقايا بنايات وهياكل وأجزاء من تجمّعات عمرانية أو من مدن أو من قرى، التي تحمل قيّما تاريخية وفنّيّة ومعماريّة أو معاني ثقافيّة حاملة بداخلها مظاهر من الطّبيعة أو تتناغم معها. وما يجب معرفته هو أنّ المنظر الثّقافي حول أو بداخل مواقع التّراث المبني يتطلّب ترجمة تفسيرية ونقديّة. التّراث المبني قادر على إفادة الإنسان بالاستخدام المفيد له، فهو يحوي الحياة والممارسة اليومية للإنسان.

" التّراث المبني يعني ويتضمّن كل بناية أو قسم منها و/ أو الهيكلة و/ أو البقايا التي تتطلّب محافظة و/ أو حماية لهدف تاريخي و/ أو معماري و/ أو حرفي و/ أو جمالي و/ أو ثقافي و/ أو بيئي و/ أو إيكولوجي ويتضمّن أجزاء من المجاورات مثل البناية أو قسما منها والذي يحتمل تسييجا أو غلافا واقيّا أو أية طريقة حماية للقيمة التّاريخيّة و/ أو المعماريّة و/ أو الجماليّة و/ أو الثّقافيّة لتلك البناية " [4].

كما يمكن تعريف التّراث المبني على أنّه البنايات وآثار وتجمّعات عمرانية تستحقّ المحافظة أو الحماية[5]. والتّراث المبني يحوي عدّة عناصر[6]:

- عناصر فرديّة (كل البنايات من كل الأنواع): منازل حضريّة ومنازل ريفية وبنايات صناعية ومستودع الغلال ومستودع الحصيد وغير ذلك.
- بنايات دينيّة ومطاحن ومقابر.
- آثار تاريخيّة مصنّفة.
- آثار تاريخيّة معروفة.
- آثار تاريخيّة مذكورة.
- مقاطعات تاريخيّة.
- مواقع تاريخيّة.
- مواقع للتّراث.

2.3 معايير الانتقاء الخاصة بالتراث:

القيمة العالميّة عالية المستوى شرط أساسي لكي يضاف الموقع أو المبنى التّراثي في قائمة تراث العالم، كما يشترط أيضا أن يتوفّر فيه معيار واحد على الأقل من المعايير المدوّنة أسفله، فهذه المعايير مراجعة بطريقة نظاميّة من طرف اللّجنة المختصّة في اليونيسكو لتعكس تطوّر مفهوم تراث العالم[7]. ابتداء من نهاية سنة 2004، المواقع التّراثيّة في العالم يتمّ انتقاؤها على أساس ستّة معايير ثقافيّة وأربعة معايير طبيعيّة، ومع اعتماد الدّليل العملي المراجع الخاصّ بتنفيذ اتفاقيّة تراث العالم، تمّ التّوصّل إلى مجموعة واحدة تتكوّن من عشرة معايير:[8]

1- يمثّل تحفة لإبداع إنساني عبقري.

2- يعرض تبادلا مهمّا لقيّم إنسانيّة أو له امتداد زمني داخل المجال الثّقافي للعالم أو ضمن المراحل التطوّريّة للعمارة والتّكنولوجيّا أو آثار فنّيّة أو تخطيط حضري أو رسم.

3- يحمل شاهدا فريدا أو استثنائيا لثقافة تقليديّة أو لحضارة قائمة أو زالت.

4- أن يكون أنموذجا لنوع مبني عالي المستوى، لمجموعة أو منظر معماري أو تكنولوجي والذي يعطي مثالا لمرحلة أو مراحل ذات معنى في التّاريخ الإنساني.

5- أن يكون أنموذجا ذا مستوى عالي لتجمّعات تقليديّة إنسانية أو أرض مستغلّة أو بحر مستغل، بحيث تمثّل ثقافة (ثقافات)، أو تفاعلا إنسانيا مع البيئة خاصّة بعد أن أصبحت هذه الأخيرة عرضة للأخطار تحت تأثير التّغيرات المتكرّرة.

6- أن يكون مواكبا بطريقة مباشرة أو واقعيّة للأحداث أو لتقاليد الحياة، مع الأفكار، أو مع الاعتقادات، مع الأعمال الفنّيّة أو الأدبيّة بالمعنى العالمي عالي المستوى. (اعتبرت اللّجنة بأنّ يستعمل مقترنا مع المعايير الأخرى).

7- أن يحوي ظاهرة طبيعيّة خارقة أو مساحات بحسن طبيعي استثنائي وجمال هام.

8- أن يكون أنموذجا عالي المستوى يمثّل مختلف مراحل تاريخ الكرة الأرضيّة، بما في ذلك نمط العيش ومعاني السّيرورة الجيولوجيّة في تطوّر أشكال اليابسة أو معاني سمات أو الأشكال الفيزيائيّة لمختلف المعالم.

9- أن يكون أنموذجا عالي المستوى يمثّل كيفيّة ومدى السّيرورة البيئيّة والبيولوجيّة ضمن النّمو والتطوّر الأرضي والمياه العذبة والنّمو والتطوّر السّاحلي وأنظمة البيئة البحريّة والمجموعة النّباتيّة والحيوانيّة.

10- يحوي المواطن الطّبيعيّة المهمّة التي تتطلّب حفاظا لمختلف الأنواع البيولوجيّة، بما في ذلك الأنواع المهدّدة ذات القيمة العالميّة عالية المستوى من المنظور العلمي أو من منظور الحفاظ.

4. حالة الدراسة: خنقة (سيدي) ناجي أو تونس الصغيرة

1.4 الموقع الجغرافي لـ خنقة (سيدي) ناجي:

الشكل 1: موقع خنقة (سيدي) ناجي في الجزائر

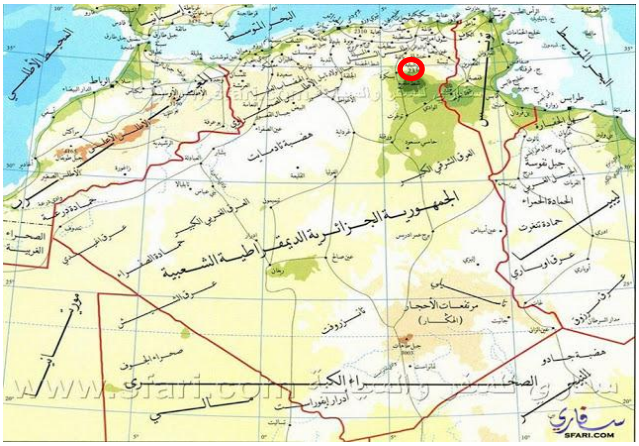

المصدر: www.sfari.com

تقع الأوراس في الجهة الشمالية الشرقية للجزائر، وتضم كلا من باتنة وبسكرة وخنشلة، ويميزها أربع وديان رئيسة: وادي الأبيض ووادي عبدي ووادي القنطرة ووادي العرب. فعلى الضفة الشرقية لهذا الأخير تقع **خنقة (سيدي) ناجي** شرق عاصمة الولاية بسكرة، وتبعد عنها بحوالي 100 كم عبر الطريق الوطني رقم 83. ويعتبر وادي العرب جزءا مهما من منطقة الأوراس، فمياهه الآتية من سد بابار تمر بكل من تبندوت وخيران وشبلة والولجة ثم **خنقة (سيدي) ناجي**. مناخها بارد شتاء، وشبه حار جاف صيفا، وتأتيها الرياح من الجهة الشمالية باردة شتاء ومن الجهة الجنوبية الغربية حارة صيفا. وتسمية "خنقة" للطبيعة التضاريسية للمنطقة وجريان الوادي بين جبالها وكيفانها، فانفتاح لمجرى الوادي تارة، وضيق لمجرى الوادي تارة أخرى. تسمية "خنقة" إذن، تعني الفج أو المضيق بين جبلين[09]. هذه المدينة الصغيرة كما سماها العقيد **ديلارتيغ** سنة 1904 محاذية لجبل تامزوز ومحاذية لآخر مضيق لوادي العرب وعلى عتبة الصحراء[9].

الشكل 2: موقع " خنقة (سيدي) ناجي " بالنسبة لوادي العرب

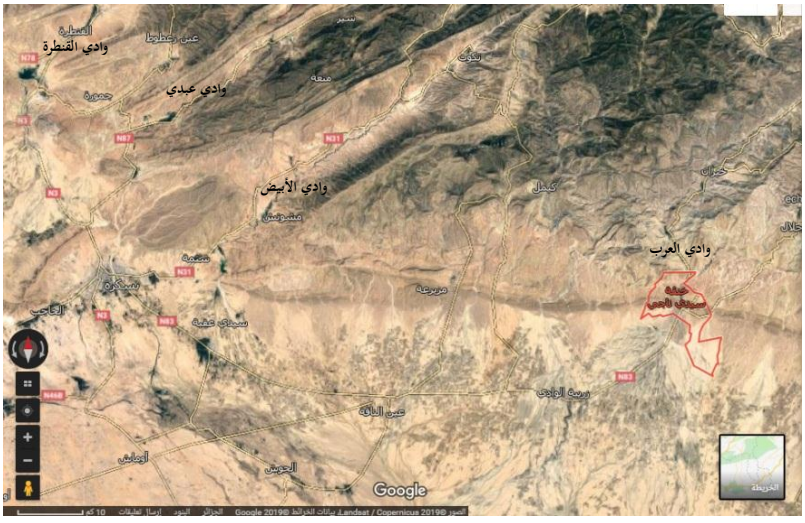

المصدر : www.google.com/maps/place/*خنقة+سيدي+ناجي*

الشكل 3: صورة فوتوغراقية لـ " خنقة (سيدي) ناجي "

المصدر: www.facebook.com/KhnqtSydyNajyAsaltWtarykh/

2.4 نبذة مختصرة عن نشأة خنقة (سيدي) ناجي:

يقول الله عز وجل في محكم تنزيله في الآية سبع وثلاثين من سورة إبراهيم: " رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ"؛ آية كان يرددها الشيخ (سيدي) **المبارك بن قاسم** رحمه الله عند ما قصد منطقة "مورد النعام" بالجزائر **(خنقة (سيدي) ناجي)** حاليا بعد رؤية رآها في المنام أين أسس أول لبنة لهذه المدينة عام 1010هـ / 1602م، بإنشاء زاوية للصلاة ولتعليم شتى العلوم بما في ذلك علوم الشريعة الإسلامية، سرعان ما أصبحت وجهة لطلاب العلم من كل حدب وصوب، وقد قال عنها **الورثيلاني** *"الخنقة قرية مباركة طيبة ذات نخل وأشجار وسط واد بين جبلين، وقد قيل أنها تشبه مكة*

في وضعها وفي البركة "[10]، وتوسعت بعد ذلك زاويتها تلك وأصبحت تسمى بـ " المدرسة الناصرية ".

ويذكر أن خمسة قبائل على الأقل قصدت مع الشيخ (سيدي) **المبارك** المكان فاستوطنت وبنت مساكنها به فظهرت معالم لمدينة مقسمة إلى خمسة أحياء رئيسة، ولما ذاع صيت زاويتها ومدرستها الناصرية أصبحت المدينة فيما بعد تلقب أيضا بـ " تونس الصغيرة " محاكاةً لـ " تونس" وجامع **الزيتونة**، ونشير قبل هذا أن الشيخ **المبارك** سمى المدينة باسم **خنقة (سيدي) ناجي** تبركا بجده الشيخ (سيدي) **ناجي** رحمه الله دفين ساحة الخيل بتونس العاصمة[11]. كما ذكر في مطوية التعريف الوجيز بتاريخ **خنقة (سيدي) ناجي** لجامع (سيدي) **المبارك** أن قدوم الشيخ (سيدي) **المبارك بن قاسم** إلى مورد النعام أو كما تسمى حاليا **خنقة (سيدي) ناجي** كان مع عدة قبائل وهي قبيلة صدراتة، وقبيلة هزابرة، وقبيلة زهانة، وقبيلة دريد، وقبيلة زناتة، وقبيلة روفة، وقبيلة نهد.

وعند إنشائه لأول مسجد بها(مسجد (سيدي) "المبارك") ملتصقة بما يسمى فيما بعد بالمدرسة "الناصرية"، ظهر حي صغير سمي بحي " كرزدة ". تشكلت بعد هذا الحي العريق أربعة أحياء أخرى وهي: حي "السوق" وحي "موسى" وحي "صدراتة" وحي "اللواتة"، ونشير أيضا إلى وقف للوافدين القاصدين طلب العلم بهذه المدينة الذين لا مأوى لهم متمثلا فيما يسمى بحارة "الحبس"، كما نشير أيضا إلى المتداول فيما يتعلق بالتقسيم إلى خمسة أحياء وخمسة أسواق وخمسة مساجد أنه راجع إلى التيمّن والتبرك بأركان الإسلام الخمس. كما تظهر إلى غاية اليوم أجزاء وآثار السور المحيط بالمدينة آنذاك والذي له بابان كان يحرسانهما حراس بالتناوب، ويحيط بكل حي أيضا سور وبابان[12].

الشكل 4: صورة جوية لـ " خنقة (سيدي) ناجي "

المصدر: www.google.com/maps/place/*خنقة+سيدي+ناجي*

3.4 المظهر العام للتراث العمراني والمعماري لـ خنقة (سيدي) ناجي:

يتميز ظاهريا التراث العمراني والمعماري لمنطقة الدراسة بعدة صفات:

– الوحدة في تشكل التجمعات تعبيرا عن القوة وحماية من العوامل الطبيعية والمناخية.

– التموقع الحصين: طبيعة الموقع هي العامل الجوهري للأمن الغذائي فهو غني بالغطاء النباتي (غابات وجنان ونخيل...الخ) ومنابع الماء، وطبوغرافية الموقع جعلت من هذا الأخير حصينا بشكل طبيعي من جهة وساعدت على المراقبة البصرية من عدة نقاط.

– احترام التناسب بين المبنى والإنسان.

– الإدماج في المحيط: إن التزاوج بين الطبيعة الانحدارية وجدران المباني خلقت مورفولوجيا غير عادية وكأن المباني جزء لا يتجزأ من المحيط الطبيعي، وتحقق هذا أساسا باحترام الحواجز الطبيعية للنمو العمراني (مع استخدام مواد البناء المحلية).

– الانغلاق من الخارج: حيث غالبا ما تغيب الفتحات في الواجهة الخارجية للمبنى وإن كانت فهي ذات أبعاد صغيرة للحفاظ على حرمة المسكن وحماية من العوامل الطبيعية.

– زوايا النظر شمولية، تعطي إمكانيات متعددة الاتجاهات لمراقبة الحدائق الخاصة.

الشكل 5: مخطط تمثيلي للعلاقات البصرية في " خنقة (سيدي) ناجي "

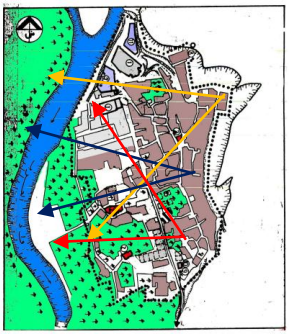

المصدر: Makhloufi Soumaya, La sauvegarde du patrimoine, Entre interventions ponctuelles et stratégie globale, 2010, p.174

4.4 النمو وتطور التشكل العمراني لـ خنقة (سيدي) ناجي:

يمكننا قراءة النمو وتطور التشكل العمراني من خلال ما يلي:

- محور النمو: وهو وادي العرب.
- عنصر النمو: التحصيصات المبنية، حيث إنّ أبسط تحصيصة يتوسطها فناء أو صحن محاط بالغرف، كما يمكن أن تحتوي التحصيصة على مدخلين أي فنائين أو صحنين حسب طبيعة الأرضية. كما يمكن للتحصيصة أن تأخذ عدة أشكال حسب طبيعة الأرضية والشوارع.

الشكل 6: رسومات تمثيلية لبعض تحصيصات خنقة (سيدي) ناجي

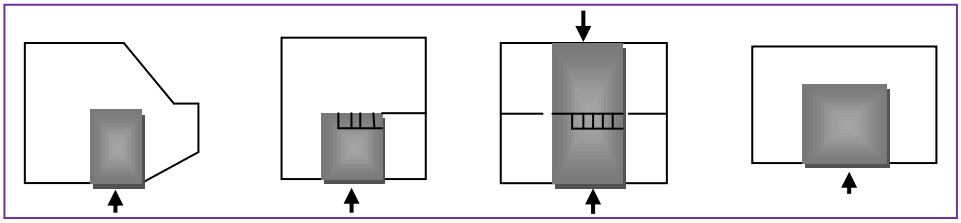

المصدر: المؤلفان، 2018

- حدود وحواجز النمو الطبيعية: على سبيل المثال الجبل الشرقي.
- توجيه النمو: من الملاحظ أن هناك اتجاهين يتميز بهما النمو العمراني:
  - أفقي: تجمعات عمرانية أفقية موازية لخطوط التسوية.
  - نحو نقطة الالتقاء: حيث إن البنايات تتجه بشكل متدرج نحو القطب.

ومن ذلك نستنتج أن شكل النمو مرتبط بشكل الوادي وخطوط التسوية وخطوط القوة في المحيط.

- الأمن والمراقبة: كما ذكرنا سابقا فإنّ الطّبيعة الطّبوغرافية للموقع وفرت من جهة الأمن، ومن جهة أخرى إمكانيات المراقبة متعدّدة الاتجاهات.

الشكل 7: مقطع تمثيلي لاتجاع التوسع العمراني

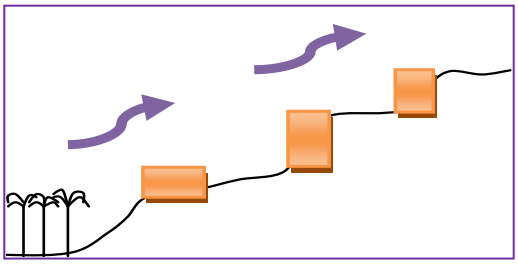

المصدر: المؤلفان، 2018

الشكل 8: مخطط تمثيلي لمراحل التوسع

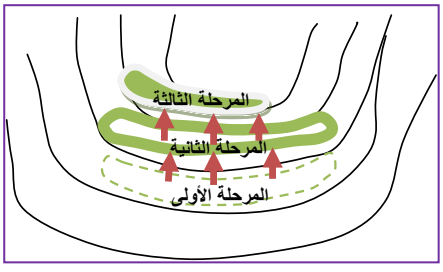

المصدر: المؤلفان، 2018

5.4 بعض أهم شواهد التراث الثقافي والمعماري لـ خنقة (سيدي) ناجي:

- مسجد (سيدي) "المبارك":

جاء في مطوية التعريف الوجيز بتاريخ **خنقة (سيدي) ناجي** ما يلي:

" وكان أباء سيدي المبارك يسكنون الأندلس في عهد الخلفاء الأمويين وبعد سقوط غرناطة هاجروا نحو تونس حيث عاش جد الأسرة سيدي ناجي الأكبر وابنه سيدي قاسم فالتف حولهما العديد من الأتباع والموردين وكان سيدي ناجي الأكبر من أولياء الله الصالحين وهو مدفون في ضريح بساحة الخيل بتونس العاصمة، وهكذا انتقلت الولاية إلى سيدي لمبارك الذي تنقل عبر بلاد المغرب الى ان استقر به المقام في خنقة سيدي ناجي مع أتباعه"[13].

وقد دوّن **قوستاف**Mercier Gustave سنة 1915عن أصول عائلة الشيخ المبارك ما يلي:

"عائلة الولي من أصول شريفة قرشيّة، عاشت مدة في الأندلس ومنها قدمت إلى تونس بعد سقوط غرناطة حيث عاش سيدي ناجي وابنه قاسم وكانت لهما بها شهرة وصيت"[14].

فكما أسلفنا الذكر، بعدما استقر الشيخ (سيدي) **المبارك بن قاسم بن ناجي** بـ "مورد النعام" التي سماها باسم جده **خنقة (سيدي) ناجي** بنى أول مسجد والمسمى مسجد (سيدي) "المبارك بن قاسم بن ناجي" كأول نواة لمدينة **خنقة (سيدي) ناجي**، حيث تموقع في مكان يتصل مع الجنان والواد غربا وبالوافدين والقاصدين شرقا، ويظهر أن الحرم تم توجيهه نحو القبلة، كما يتضح من المئذنة المربعة القاعدة أن المسجد بني على الطراز المغاربي وفق النمط التونسي بصحن شبه منحرف (الشكل رقم 9)، وله ارتباط مع المقبرة والمدرسة الناصرية. ومن بين أهم القيم الأثرية

الاستثنائية للمسجد ومحيطه المجاور، نذكر الطراز المغاربي (التونسي) للمئذنة ذات القاعدة المربعة، والصحن شبه المنحرف المحاط برواق أقواس، واحتوائه للعديد من النقوش والزخارف وفق النمط التونسي العريق، وتسجيل لأسماء الأساطى (النقاشين) وسنة إنجاز تحفهم الفنية بالمسجد، والتحامه بالمدرسة الناصرية والسرايا والمقبرة الخاصة مع وجود مقبرة الأتراك (السبع) مقابلة للباب الغربي للمسجد.

الشكل 9: موقع ومخطط مسجد (سيدي) "المبارك" مع المدرسة الناصرية

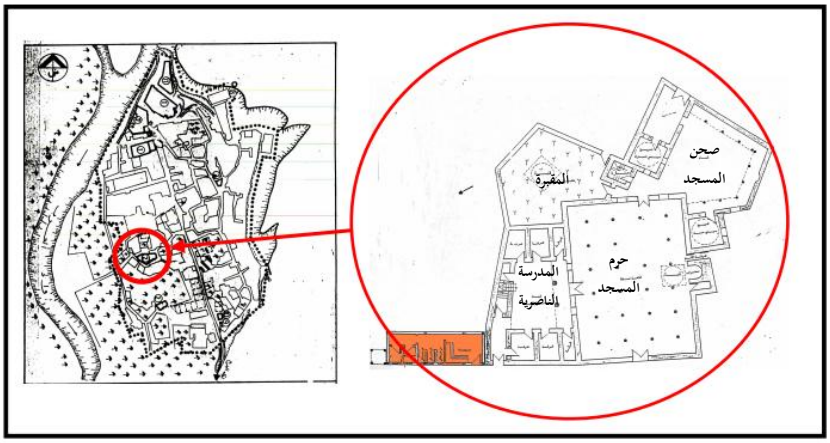

المصدر: Makhloufi Soumaya, La sauvegarde du patrimoine, Entre interventions ponctuelles et stratégie globale, 2010, p.174

الشكل 10: صور صوتوغرافية تظهر مسجد (سيدي) " المبارك "

المصدر: المؤلفان، 2018

- المدرسة الناصرية:

بنيت المدرسة الناصرية عام 1171 هـ الموافق لـ 1751 م من طرف الشيخ **أحمد بن ناصر بن محمد بن الطيب**، فكانت مركزا لنهل العلم الشرعي وشتى العلوم، وكانت تتكوّن من خمس عشر غرفة بنظام داخلي، تخرج من هذه المدرسة العديد من العلماء، بعضهم تابع دراسته في الزيتونة والأزهر، ومن بينهم **محمد المدني بن المكي بن الصديق** (عالم دين، ومقترح تسمية **البصائر** على الإمام **عبدالحميد بن باديس**)، **عمراني مسعود** (قاضي)، **قوبع عمارة** (طبيب)، **حسين بن ناصر** (عالم فلك)، **العربي التبسي** (عالم لغة وفقه)، **الشاذلي مكي** (ممثل الجزائر في الدول العربية)...الخ[15].

الشكل 11: صور صوتوغرافية داخلية للمدرسة الناصرية

المصدر: المؤلفان، 2018

ومن بين العلماء الذين تخرجوا من هذه المدرسة نذكر مايلي (مطوية التعريف الوجيز بتاريخ **خنقة (سيدي) ناجي**، 2018)[16]:

- علماء الدين:
  - المكي بن الصديق بلمكي شارح (سيدي) خليل وحكم (سيدي) عبدالحفيظ.
  - الأمين بلمكي الذي قد جمع علوم الدين والأدب.
  - محمد المدني بن المكي بن الصديق الذي اقترح تسمية "البصائر" على الإمام عبدالحميد بن باديس.
  - محمد زروق بلمكي الذي جمع علوم الدين والكيمياء والفلك والأدب وكان مفتيا بمسجد (سيدي) "مبارك" بصفة رسمية.
- القضاة:
  - الشيخ محمد الطيب بن امحمد الحاج بن حسين الخنقي الذي كان قاضيا بأولاد جلال.
  - الشيخ عمراني مسعود الذي كان قاضيا بوادي سوف.

- الشيخ محمد بن ابراهيم مكي الذي كان قاضيا بـ (سيدي) عقبة.

- الأدباء:
  - الشيخ صالح تومي الذي كان عالما في الأدب والعلوم الدينية.
  - الشيخ عاشور كليبي الذي كان بحرا واسعا في اللغة وشاعرا وكاتبا ومفسرا للقرآن.
  - الشيخ عبدالمجيد بن حسين وهو من اقترح تسمية "الشهاب" على الإمام عبدالحميد ابن باديس.
  - الشيخ العربي التبسي كان بحرا في اللغة والشعر والفقه.
  - الأستاذ الشاعر مكي الجنيدي الذي كان محاميا بمدينة عنابة.
  - الأستاذ الشاذلي مكي الذي كان يمثل الجزائر في جامعة الدول العربية وهو ثالث من صمم العلم الوطني الجزائري.
- علماء في الطب:
  - عمارة قوبع الذي بلغ درجة كبيرة في الطب.
  - الشهيد محمود قوبع الذي كان طبيبا لجيش التحرير الوطني أثناء الثورة.
- علماء في الرياضيات:

نذكر منهم (سيدي) عبدالله بن عبدالواحد الذي جمع علوما عديدة وخاصة منها علوم الرياضيات والهندسة، وهو الذي بث في قضية المياه المتنازع عليها آنذاك بين أهالي عاصمة الزيبان بسكرة، فرضوا بحكمه بعد خصام طويل.

- علماء الفلك:

- حسين بن ناصر أحد حكام البلدة، كان يجمع بين الفلك وعلم الطب وعلوم الدين.
- الشيخ سيدي محمد الأزهاري بن عبدالحفيظ الذي كان أيضا شيخا في الطريقة الرحمانية والتصوف الإسلامي، ونشر الطريقة الرحمانية في بلدية خيران، والمناطق المجاورة، وضريحه في زاويته بخيران حيث توفي عام 1896 م.

وعموما قد كانت المدرسة الناصرية مركز إشعاع حقيقي على مستوى عمالة قسنطينة في تلك الفترة، حيث كان يقصدها الطلاب من كل حدب وصوب للاستفادة والنهل من العلوم على مختلف أنواعها وخاصة منها علوم الدين وحفظ القرآن. أما الطريقة الناصرية فقد أتى بها (سيدي) "المبارك من المغرب الأقصى.

- السرايا:

تسمى أيضا قصر "الحساينية"، وقد تم تشييدها سنة 1679 م، وتتقاسم سقيفة أقواس مع مسجد أو كما يسمى أيضا جامع (سيدي) "المبارك"، تتكوّن السرايا من ثلاثة طوابق، الأول منها يعتبر إقامة للقائد، أما باقي الطوابق فهي مقسمة على ستة إلى سبعة عائلات. تعتبر السرايا أيضا مكانا لالتقاء السكان لفض النزاعات وحل المشاكل اليومية. كما تتواجد بها مكتبة، مما يجعل منها أيضا مكانا لتعلم شتى المعارف بما في ذلك علوم الشريعة الإسلامية، ويتوسط السرايا صحن محاط بالغرف المختلفة (مع وجود بئر في مركزه)[17].

الشكل 12: مخطط تموضع السرايا بالنسبة لمسجد (سيدي) " المبارك "

المصدر: Makhloufi Soumaya, La sauvegarde du patrimoine, Entre interventions ponctuelles et stratégie globale, 2010, p.145

الشكل 13: صور صوتوغرافية داخلية وخارجية للسرايا

المصدر: المؤلفان، 2018

- التركيبة العمرانية:

الشكل 14: مخطط تمثيلي للتركيبة العمرانية لـ خنقة (سيدي) ناجي

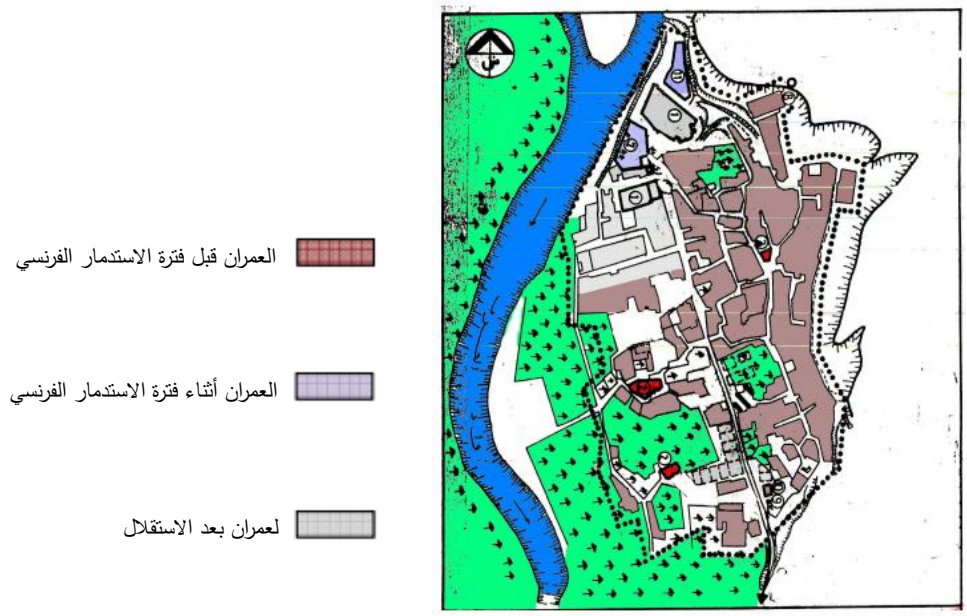

المصدر: Makhloufi Soumaya, La sauvegarde du patrimoine, Entre interventions ponctuelles et stratégie globale, 2010, p.142

كما أسلفنا الذكر فبعد إنشاء مسجد (سيدي) "المبارك" محاطا ومحاذيا للجنان المحاذية بدورها للضفة الشرقية لوادي العرب، بدأت تتشكل الأحياء الخمس تباعا اعتبارا للسواقي الخمس، وبالموازاة مع العائق الجبلي الشرقي وبشكل خطي عضوي، بتراص بين المباني مما خلق مناخا مصغرا يختلف عن مناخ خارج الواحة الذي يتميز بالحرارة والجفاف صيفا، فتشكل بذلك النسيج العمراني بنمط تواصلي متلاصق يفصله ممرات شبه مغطاة، تتشابك أحيانا أحجام البنايات أعلاها لتخلق أنفاقا تحتها للعبور من حي لآخر (تسمى "لسقيفة" ، ولها دور بيومناخي أيضا يتمثل في تلطيف الجوّ)، كما تظهر أن المدينة محاطة بسور مع بوابتين خارجيتين وبوابات داخلية بين الأحياء.

ونشير إلى أنه أثناء فترة الاستدمار الفرنسي عرفت المدينة بعض الممارسات السيئة من طرفه مثل التهديم وتغيير الوظيفة الأصلية خاصة شمال **خنقة (سيدي) ناجي**، وبعد الاستقلال تمّ بناء بعض البنايات على حساب الجنان خاصة شمال غرب المدينة.

الشكل 15: صور صوتوغرافية لبعض عناصر التركيبة العمرانية لـ خنقة (سيدي) ناجي

المصدر: المؤلفان، 2018

- المساكن:

من خصائص المساكن في **خنقة (سيدي) ناجي** التدرج المجالي من الخارج نحو الداخل، فبعد بوابة المدخل، نجد السقيفة، ثم الفناء المركزي التموقع (مركز مختلف النشاطات)، ثم باقي المجالات أفقيا وعموديا (وسط الدار). من أهم مميزات أغلب المساكن في هذه المدينة الصغيرة أيضا وجود طابق ثان وأحيانا سطح مستعمل فوق هذا الطابق الثاني على عكس الكثير من المناطق الصحراوية الأخرى، وهذا يدلّ على قدرة التحكم في تقنيات البناء ومواده، والذكاء في التعامل مع الطبيعة الطبوغرافية الانحدارية للمنطقة. نشير أيضا إلى اختراق السواقي لبعض المساكن عبر أفنيتها (الشكل 16، الصورة السفلى).

الشكل 16: صور فوتوغرافية داخلية لبعض مساكن خنقة (سيدي) ناجي

المصدر: المؤلفان، 2018

- السوق:

تميزت **خنقة (سيدي) ناجي** اقتصاديا بالطابع الفلاحي في بداية نشأتها وأولى مراحل عمرانها، حيث كانت من أهم منتوجاتها التمر الذهبي العلكي، والقمح والشعير آنذاك، وبالموازاة مع تصاعد صيت علمائها ومدرستها، أصبحت مقصدا محليا ودوليا، ازدهرت التجارة بها وكثرت المحلات والدكاكين فيها وظهر بها السوق "الخنقي"، وظهرت معه حرف أخرى كالصياغة والحدادة والحياكة والصيدلة الشعبية وصناعة العطور ...الخ.

الشكل 17: صور فوتوغرافية للسوق

المصدر: المؤلفان، 2018

- **الفن المعماري في خنقة (سيدي) ناجي:**

وفيما يتعلق بالفن والعمارة في **خنقة (سيدي) ناجي**، يقول الباحث **أحمد السعداوي** مؤكدا في هذا الإطار علاقة التقارب بينها وبين مدينة "تونس":

" ... ويتجلى هذا التقارب بوضوح في مجال العمارة والفنون، وقد أشار قوستاف مارسيي Mercier Gustave أن الخنقة تشبه في عمارتها المدن التونسية، بل نجد بها بعض القطع الفنية التي تعتبر من أجمل ما أنتج الفن التونسي في العصر الحديث. لذلك لا نستغرب أن تحمل البلدة من ضمن تسمياتها اسم" تونس الصغيرة "[18].

وتتكرر كلمة الأسطى في النقوش وأصلها تركي وتعني المعلم الخبير في إتقان إحدى الصناعات أو الفنون، مثل الأسطى **الحاج امحمد السعد بن عمر الصفاقسي** باني جامع (سيدي) "المبارك" في مارس سنة 1734 م، والأسطى **أحمد بن عمر التونسي** الذي أنجز نقوش محراب الجامع في جويلية سنة 1734 م، والأسطى **أحمد بن عمر الشريف الجبايلي** النقاش الذي صنع وركب ونقش الباب الغربي للجامع سنة 1734 م، وتقول الكتابة ما يلي:

" وقام البناؤون علي البنزرتي ومحمد البنزرتي وقاسم الصفاقسي بمعية أربعة صنّاع آجر، أرسلهم باشا بن علي باي (1782-1814)، بتجديد مئذنة مسجد سيدي ناجي بعد سقوطها عام 1794/1210 "[19].

وآخرون تركوا بصماتهم بهذه المدينة، كما توجد بها الكثير من التحف الفنية، تبقى شاهدة ليومنا هذا على الحسّ الفني الذي يتسم به مستوطنو هذه المدينة، وكما ذكرنا سابقا البوابة الغربية لمسجد (سيدي) المبارك التي تتميز بزخارف نباتية وهندسية منجزة على الحجر بنمط تونسي عريق مع تقليد بالخزف الإزنيقي زخرفة وألوانا.

الشكل 18: تحلّيه زخارف منجزة على الحجارة تنتمي إلى نمط تونسي عريق

المصدر: السعداوي أحمد، التواصل بين إيالتي تونس والجزائر، 2016، ص.11

الشكل 19: تحلّيه زخارف منجزة على الجبس منجزة من طرف حرفيين محليين وتونسيين

المصدر: إرشيف مكتب الدراسات " المنار"، 2002

الشكل 20: جدارية بالكتابة والزخرفة الملونة تدون اسم الفني وتاريخ المنشأ

المصدر: المؤلفان، 2018

5. خاتمة:

من خلال الدراسة نستخلص أنّ أهم النتائج كانت متمثلة في كون أنّ **خنقة (سيدي) ناجي** كانت مدينة علم ودين وثقافة وفلاحة وتجارة، وكانت حاضرة علم وفن وجمال، فبعض الشواهد التي ذكرت في هذا المقال ما هي إلى جزءا من الكم الهائل الذي تزخر به، كما أنّ تلك الشواهد وغيرها تجعل منها حاضرة تراثية ومعمارية وثقافية تستحق إعادة الاعتبار لها وتعميم ترميمها وبعثها من جديد. وإذا مرّرنا تراثها المعماري على معايير الانتقاء الخاصة باليونيسكو فستكون جديرة بحق لأن تصنف ضمن التراث الثقافي والمادي العالمي لليونيسكو، بداية من المعيار الأول المتمثل في كونها تحفة لإبداع إنساني عبقري إلى غاية المعيار العاشر والمتمثل في كونها تحوي المواطن الطّبيعيّة المهمّة التي تتطلّب حفاظا لمختلف الأنواع البيولوجيّة. فالمشاهد والزائر لـ **خنقة (سيدي) ناجي** يلحظ بشكل جلي الأبعاد التاريخية والثقافية والفنية التي يمكن قراءتها آليا وبكل سهولة من خلال مكوّناتها التراثية المعمارية الناطقة.

ومن أهم التوصيات التي يمكن نسجيلها من خلال هذه الورقة البحثية هي ضرورة الالتفات الجاد لهذه المدينة التراثية من طرف السلطات المحلية والمركزية للبلد، بعمليات الحفاظ الإجرائية المستعجلة، حيث إنّ أجزاءً كثيرة من البنايات تهاوت أو على وشك التهاوي. كما نشير مؤكدين أنّ إعادة بعثها من جديد يجعلها مقصدا حقيقيا للسياحة وموردا اقتصاديا فعالا، فهي تمتلك كل المؤهلات لذلك. ونلفت انتباه السلطات أنّ أسس الاستثمار السياحي موجودة ذاتيا في **خنقة (سيدي) ناجي**، ما عليها إلاّ تفعيل الآليات المسطرة في مخططات التنمية السياحية للوصاية.

6. الإحالات والهوامش:

[1] مشاري عبدالله النعيم، سفر العمران، ط.1، الدمام، مطابع الشركة الشرقية، 2010، ص.71.

[2] ينظر: www.restauration-patrimoine.fr/missions.php

[3] ينظر: www.constructif.fr/bibliotheque/2006-2/les-sens-multiples-d-un-mot-porteur-de-valeurs.html?item_id=2676

[4] المرجع نفسه.

[5] ينظر: www.granddictionnaire.com/btml/fra/r_motclef/index800_1.asp

[6] Société d'histoire et du patrimoine de la région de la Sarre, Étude d'ensemble et inventaire du patrimoine bâti de La Sarre, Ministère de la Culture, des Communications et de la Condition féminine du Québec et de la ville de La Sarre, 2008, p.1.

[07] عساسي عبدالحليم، التراث المبني بوادي الأبيض: التصنيف وإشكالية الطراز والنمط والطابع، ساربروكن، ألمانيا، نور نشر، 2017، ص.15.

[08] ينظر: www.whc.unesco.org/en/criteria/

[09] Delartigue, Monographie de l'Aures, Constantine : 3° ZOUAVES, 1904, p.23.

[10] الورتيلاني الحسين بن محمد، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2008، ص.150.

[11] السعداوي أحمد، التواصل بين إيالتي تونس والجزائر، السبيل: مجلة التاريخ والآثار والعمارة المغاربية (تونس)، عدد 1، 2016، ص.3.

[12] المرجع نفسه، ص.1.

[13] مطوية جامع سيدي المبارك، مطوية التعريف الوجيز بتاريخ خنقة سيدي ناجي، خنقة (سيدي) ناجي: مسجد (سيدي) المبارك، 2018، ص.2.

[14] Mercier Gustave, Khanguet Sidi Nadji, Quelques inscriptions arabes inédites, in Notices et Mémoires de la Société Archéologique du Département de Constantine, Vol. 49, Constantine, 1915, p.154.

[15] مطوية جامع سيدي المبارك، مطوية التعريف الوجيز بتاريخ خنقة سيدي ناجي، خنقة (سيدي) ناجي: مسجد (سيدي) المبارك، 2018، ص.2.

[16] المرجع نفسه، ص.1.

[17] Makhloufi Soumaya, La sauvegarde du patrimoine entre interventions ponctuelles et stratégie globale- Cas de la dachra de Khanguet Sidi Nadji,

Mémoire de Magistère en Architecture, Sous la direction du Dr. Farhi Abdallah, Université de Biskra, 2010, p.146.

[18] السعداوي أحمد، التواصل بين إيالتي تونس والجزائر، مرجع سابق، ص.1.

[19] بن حسين كريمة، بلدة خنقة سيدي ناجي إبان الحكم العثماني، المجلة التاريخية المغاربية (تونس)، عدد 89-90، 1998، ص.105.

7. قائمة المراجع:

المراجع:

1. أرشيف مكتب الدراسات "المنار"، بسكرة، 2002.
2. عساسي (عبدالحليم)، التراث المبني بوادي الأبيض: التصنيف وإشكالية الطراز والنمط والطابع، ساربروكن، ألمانيا، نور نشر، 2017.
3. مشاري (عبدالله النعيم)، سفر العمران، ط.1، الدمام، مطابع الشركة الشرقية، 2010.
4. الورتيلاني (الحسين بن محمد)، الرحلة الورتيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2008.

المراجع باللغة الأجنبيّة:

1. Delartigue, Monographie de l'Aures, Constantine : 3° ZOUAVES, 1904.
2. Makhloufi (Soumaya), La sauvegarde du patrimoine . Entre interventions ponctuelles et stratégie globale. Cas de la dachra de Khanguet Sidi Nadji, Mémoire de Magistère en Architecture, Sous la direction du Dr. Farhi Abdallah, Université de Biskra, 2010.
3. Mercier (Gustave), Khanguet Sidi Nadji, quelques inscriptions arabes inédites, in Notices et Mémoires de la Société Archéologique du Département de Constantine, Vol. 49, Constantine, 1915.
4. Société d'histoire et du patrimoine de la région de la Sarre, Étude d'ensemble et inventaire du patrimoine bâti de La Sarre, Ministère

de la Culture, des Communications et de la Condition féminine du Québec et de la ville de La Sarre, 2008.

الدوريات:

1. بن حسين (كريمة)، بلدة خنقة سيدي ناجي إبان الحكم العثماني، المجلة التاريخية المغاربية (تونس)، عدد 89-90، 1998.
2. السعداوي (أحمد)، التواصل بين إيالتي تونس والجزائر، السبيل: مجلة التاريخ والآثار والعمارة المغاربية(تونس)، عدد 1، 2016.
3. مطوية جامع سيدي المبارك، مطوية التعريف الوجيز بتاريخ خنقة سيدي ناجي، خنقة (سيدي) ناجي: مسجد (سيدي) المبارك، 2018.

المواقع الالكترونية:

1. www.constructif.fr/bibliotheque/2006-2/les-sens-multiples-d-un-mot-porteur-de-valeurs.html?item_id=2676
2. www.facebook.com/KhnqtSydyNajyAsaltWtarykh/
3. www.granddictionnaire.com/btml/fra/r_motclef/index800_1.asp
4. www.restauration-patrimoine.fr/missions.php
5. www.whc.unesco.org/en/criteria/